شهريات

بقلم رئيس التحرير

أنتم على حق ... ولكن ...

في عدد نيسان الماضي من الزميلة التونسية « الفكر » مقال افتتاحي بقلم مديرها المسؤول الصديق الاستاذ محمد مزالي، عنوانه « وظلم ذوي القربى ... » يناقش فيه « كتابات بعض المثقفين المشارقة » الذين ينسب كل واحد منهم الى قطره « رسالة تاريخية ويعتبره مؤهلا ـ دون سواه ـ فكريا وحضاريا لحل ازمة الفكر القومي وانارة سبيل البلدان العربية الاخرى، من دون أن يكلف نفسه مشقة التعرف الى الاقطار العربية الاخرى ، وخاصة في بلدان المغرب العربي الكبير التي ظلت في الماضي مهضومة الجانب بسبب عقدة التفوق لدى الكثير من الكتاب والدارسين في المشرق ... » .

وقد وجدت الاستاذ المزالي محقا في مناقشة عبد العزيز الدسوقي الذي يظهر نزعة شوفينية في حديثه عن مسؤولية مصر في حل ازمة الفكر القومي... ولكن ما يقوله الكاتب التونسي هشام جعيط من ان « تجديد الفكر العربي لن يأتي من المشرق ؛ بل من هذا المغرب الممزق » ، لا يقل شوفينية وتحيزا ، وهو ما أشار اليه ضمنا المزالي نفسه حين قال : « ومع ذلك ، فنحن متمسكون بالتواضع العلمي ومؤمنون بأن شرف تجاوز ازمة الفكر العربي الاسلامي سينالـه كل العرب الاصيلين أيا كان منبتهم .. » .

كما ان المزالي كان على حق في التعبير عن المه ومرارته لما كتبه عبد الرحمن سلامة في عدد كانون الثاني من مجلة « الموقف الادبي » السورية عما يستفاد منه موت اللغة العربية في المغرب العربي ، وانتشار الشعوذة انتشارا غريبا تشجع عليه السلطات نفسها ؛ و « انتشار البغاء والمتاجرة بالجنس بشكل يفوق اوروبا نفسها » .

نقول ان مدير مجلة « الفكر » كان على حق في شجب هذه الكتابة ، لانها لا تستند الى اية مراجع او مصادر موثوق بها .

اننا نشاطر الاخوان التونسيين المهم لهذه التهجمات التي ليس من شأنها الا ان تضعف اواصر التضامن بين الشعوب العربية ، وتعطي « الانعزاليين » في المغرب سلاحا يستعملونه في الدعوة الى الحياد والانفصال عن سائر أقطار الوطن العربي .

وقد كنا نربأ بالزميلة الدمشقية «الموقف الادبي» ، مجلة « اتحاد الكتاب العرب » في سورية ، أن تنشر هذا المقال المسيء والسيىء من غير أن تحقق وتدقق في ما أورده من معلومات ...

ولا شك في ان المزالي ، حين يولي هذا الامر اهتمامه الكلي ، انما يصدر في ذلك عن الايمان بضرورة التضامن والتواصل بين المثقفين العرب ، ايمانا منه بوحدة الثقافة العربية والامة العربية .

ومع ذلك ... فليسمح لنا الزميل المزالي ان نعبّر عن المنا واستيائنا من مقال نشر في العدد نفسه من « الفكر » بعنوان « مقومات الشخصية التونسية » بقلم احمد خالد يتحدث فيه حديثا طويلا عما دعاه « الامة التونسية » .

يقول الكاتب : « واذا قلنا الشخصية التونسية ، فانا نعني انتسابنا الى أمة تسمى الامة التونسية المعتزة بكيانها المستندة الى مقومات خاصة » .

ويقول : « ما أمكن للشعب التونسي أن يصبح أمة على حدة الا لانه أثبت نفسه كمجموعة تاريخية من الناس تتوفر فيهم شروط خمسة : انهم يتكلمون لغة مشتركة هي اللغة العربية ولهم تاريخ مشترك وتراث نفسي مشترك ويعيشون على أرض واحدة ولهم مصالح اقتصادية مشتركة » .

اننا نلاحظ هنا ان الكاتب لم يسجل عروبة تونس الا في مضمار اللغة . اليس التاريخ المشترك والتراث المشترك عربيين ؟ والارض التونسية والمصالح الاقتصادية المشتركة ، أليست عربية هي كذلك ؟ واذن ، فما دامت هذه المقومات كلها عربية ، فلا شك في ان انتساب الشعب التونسي انما هو الى الشخصية الاوسع والاكثر تمثيلا ، وهي الامة العربية . وهذا هو المفهوم الذي تؤمن به الشعوب العربية كلها وتطمح الى تحقيقه وتعمل في هذا السبيل ، ولو كان بعض الحكام يناهضون هذا الطموح !

اننا لا ننكر « وجود ثقافة تونسية متميزة بشخصيتها في خصائصها ونوعيتها عن الثقافات العربية والاسلامية الاخرى ... » كما يقول الكاتب ، ولكن هذا « التميز » انما هو « في داخل » الاطار الكبير ، اطار وحدة الامة العربية ، تميز ـ في ـ الوحدة ، وليس خارجها ...

ان تونس « جزء » من الامة العربية التي هي « الكل » ، ولا يمكن للجزء أن يكون كلا ، الا اذا شاء ان يتنكر لهذا الكل ، كما هو شأن دعاة « الامة اللبنانية » الذين يريدون ان يجعلوا شخصية لبنان شخصية تامة

مستقلة عن شخصية الامة العربية ككل . وكذلك يفعل دعاة الفرعونية في مصر .. ولكنها كلها دعوات باطلة ، لانها انما هي تنكر للواقع الحالي . الواقع « العروبي » الذي لا يستطيع أن يفرّق بين هموم الشعوب العربية ومطامحها ومصالحها ، وهي تنكّر للماضي والتراث والتاريخ ، وتنكّر للمستقبل الذي لا يمكن أن تصنعه الا « الارادة العربية المشتركة » وهي ارادة الوحدة العربية.

نموذج للنقد اللامسؤول

لمجلة « المستقبل » اللبنانية ، التي تصدر بالعربية في باريس ، مراسل في بيروت هو : بول شاوول .

ومن يتابع رسائل هذا الكاتب يجد انه قد نصب نفسه ، منذ فترة ، حكما في شؤون الثقافة العربية والمثقفين العرب ...

ولكن المشكلة ـ والمصيبة معا ـ ان هذا القاضي يصدر احكامه بلا حيثيات ولا مبررات ، مما يدل على انعدام حسّ المسؤولية لديه !

وساختار هنا نموذجين من هذه « الاحكام » التي يطلع بها علينا أسبوعيا .

النموذج الاول هو الذي كتبه في العدد ٥١ من « المستقبل » بتاريخ السبت ١١ شباط الماضي تحت عنوان « احتضار الشعر الحر » ، وجاء فيه قوله :

« الى اي مدى ما زال الشعر الحر ، أو ما يسمى نظام التفعيلة ، قادرا على استيعاب التجارب الشعرية المعاصرة ؟ (...) هل استنفد ايقاعاته بحيث صار اعتماده ضربا من التكرار والاجترار ؟ هذه التساؤلات أصبحت ملحّة وتتطلب في الرد عليها تفهما جذريا وجديدا لحركة الشعر الحديث في علاقتها بمختلف الظروف التي تتحرك فيها ، منذ جبران وحتى ايامنا هذه ، وهذا التفهم لا بد وأن يقترن بجراة تخترق مجمل اشكال الجمود والردة أو عمليات التشبث الاعمى بالتراث والتقوقع في بعض أطره الجاهزة ... » .

ولا شك في ان طرح الموضوع بهذه الصيغة الاستفهامية ، معناه التشكيك في قدرة الشعر الحر على استيعاب التجارب الشعرية المعاصرة ان لم يكن نفي هذه القدرة أصلا .. ومع ذلك فما معنى أن يكون « اعتماده (أي الشعر الحر) ضربا من التكرار والاجترار ؟ » اعتماده من قبل من ؟ وكيف يكون هذا الاعتماد بذاته تكرارا واجترارا ؟

ومع ذلك ، فيبدو ان الكاتب أحسّ ، وهو يطلق ذلك الحكم غير الموضوعي ، بأنه يقول شيئا خطيرا ، فاذا به يردف قائلا :

« ولعل خطورة هذا الموضوع تكمن أولا واخيرا في مواجهة هذه المشكلة وبالتالي في امكانية طرحها طرحا موضوعيا يبتعد عن الاساليب الذاتية او الديماغوجية ، خصوصا وانها المرة الاولى التي يطرح هذا الموضوع بالذات ، ومن الزاوية التي ننطلق منها » .

انه يعترف هنا بأن الخطورة تأتي من طرح المسألة « للمرة الاولى » . ومع ذلك ، فما هي العدة التي اتخذها لتفصيل مبررات هذه التهمة ؟

انه يتابع قائلا :

« ولعلنا لا نخفي سرا ، اذا قلنا ، اننا منذ اكثر من عشر سنوات ، قلما وجدنا في مجمل نتاج الشعر الحر ، الذي ينشر في الدواوين أو الصحف والمجلات ، اي تنويع او تقدم أو جديد ، سواء عند الرواد او المخضرمين او الشباب ، ويمكنك بكل سهولة ، ومن دون أدنى حرج ، أن تقتطع مقاطع لشعراء مختلفين ، ومن مراحل شعرية مختلفة ، وتجري عليها عملية « مونتاج » بسيطة ، ليتبين لك انه لا فوارق تذكر بين مجمل ايقاعات هذه المقاطع أو حركاتها أو بناها ، فكأن كل الشعراء الذين يعتمدون الشعر الحر اليوم باتوا يكتبون قصيدة واحدة مع بعض التنويعات المختلفة . وهذه الناحية ، تطمس بوضوح الخصوصية والتميز ، وتحول الشعر الى فن مشاع مقتلع عن عمق التجارب الخاصة والمناخات الخاصة » .

هكذا يطلق الكاتب آراءه خبط عشواء : منذ عشر سنوات (لماذا عشر سنوات بالضبط ؟) لا يجد الكاتب (وهو لا يخفي سرا في ذلك !) اي جديد عند أي شاعر ينتمي الى أي جيل : كلهم يكتبون قصيدة واحدة ، محمود درويش يكتب مثل خليل حاوي ، وسعدي يوسف مثل احمد عبد المعطي حجازي ، ومحمد عفيفي مطر مثل امل دنقل ، ومحمد علي شمس الدين مثل

ـ التتمة على الصفحة ٨ ـ

« المستقبل العربي »

تحت شعار « وعي الوحدة العربية ـ وحدة الوعي العربي » ، صدرت أخيرا في بيروت مجلة جديدة هامة يرأس تحريرها الكاتب القومي المعروف الاستاذ أنيس صايغ ويشرف عليها « مركز دراسات الوحدة العربية » الذي يضمّ مجلس امنائه نخبة من المفكرين الوحدويين العرب .

وقد جاء في افتتاحية العدد الاول بأن المجلة « تؤمن بأن المستقبل للعرب ، وان المستقبل في الوحدة ، وان العرب هم الوحدة ، وان العرب هم المستقبل » .

و « الآداب » التي يقود خطاها الهدف نفسه ، على الصعيد الادبي ، ترحب بالزميلة « المستقبل العربي » وتتمنى لها الرواج الذي يستحقه نبل غايتها وجدية وسيلتها لبلوغ هذه الغاية .

الاخيرة أخذت الفصحى تهبّ من غفوتها وشرعت تتطور . وأخذت أنماط الكتابة تتغير عما الفه القدماء . وانطلق النشر العربي انطلاقة كبرى . والذي يقرأ كتب طه حسين مثلا يرى الفرق الشاسع بين أسلوبه واسلوب الكتبة المحافظين القدماء . ومثل طه حسين عشرات الكتّاب الذين سلكوا سبلا قويمة جديدة في الاسلوب الكتابي في كل الاقطار العربية ، وكان للبنان ورجاله في القرنين التاسع عشر والعشرين الفضل الاكبر في شق هذا الطريق الجديد للناشئة الجديدة وفي تعميمه في دنيا العرب كلها عبر الصحافة والمدارس والجامعات . واني أدعو الاخ الكريم الى أن يقرأ ما كتبه شارل مالك في كتابه « لبنان في ذاته » ليرى اسهام لبنان في النهضة العربية الحديثة صحافة وطباعة وترجمة وتعليما وشعرا وأدبا .

وفي الختام ان الامر في جوهره يرجع الى الامة العربية وليس اللغة ، وان الذي يقرر مقدرة اللغة هو اهلها من العلماء والمفكرين . ولبنان على تقدمه ورقيه هو جزء صغير من العالم العربي ، والعدول عن اللغة التي تربط بين أجزاء هذا العالم المترابط شئنا أم أبينا الى عامية ضيقة هو حجر عثرة في سبيل تقدم لبنان نفسه وفي سبيل المحافظة على اثره في قيادة الفكر في العالم العربي .

ولبنان فوق ذلك هو كما قال بعضهم الرئة التي يتنفس بها العرب في المحنة التاريخية التي يمرون بها اليوم ، ولذلك وجب عليه المحافظة على دوره الثقافي التقليدي ولا يتم الا بمحافظته على الفصحى التي سبق وعززها ورفع بناءها في العصور الاخيرة كلها . كان زعماء النهضة الفكرية الصحيحة والحركة القومية العربية في الغالب من لبنان منذ أثارها ابراهيم اليازجي بقوله :

« تنبهوا واستفيقوا أيها العرب » .

وستظل الزعامة الفكرية فيه ويظل هو الرائد الاكبر في أدبه وصحافته وفي تجديد اللغة وتطورها وفي النضال الحقيقي في سبيل الحفاظ عليها . ولست أكتمكم ان مثل هذه الحركات في الدعوة الى العامية اللبنانية أو الحرف اللاتيني تسيء الى لبنان اكثر مما تنفعه ولا سيما انها لا تصل البلاد العربية الا مشوهة عن الغاية في نفوس أصحابها المسؤولين .

أوردها سعد وسعد مشتمل
ما هكذا يا سعد تورد الابل (**)

(*) راجع : التطور النحوي للغة العربية ، للاستاذ برجشتراسر (مصر ، ١٩٢٩) .

(**) كلمة القاها الدكتور جبرائيل جبور خلال مناظرة جمعته وسعيد عقل في الرابية في ٣ نيسان ١٩٧٨ .

شهريات

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣ ـ

الياس لحود ، وشوقي بزيع مثل هؤلاء جميعا ... وحين يستعرض الكاتب في نفسه هذا الموكب يجد ، مع ذلك ان هذا الحكم خطير ، فيستدرك ـ متناقضا مع كلامه الاول ـ بقوله « مع بعض التنويعات المختلفة » ...

أليست مواجهة القضية بهذه السذاجة وهذا التبسيط ضربا من المجانية في اصدار الاحكام التي لا تستند الا الى النزوات والشطحات ، ولا تقدم أي دليل على صحة المقولات ؟ اهكذا يمارس الناقد مهمته . ويؤرخ الراصد لحياتنا الادبية ؟

الم يشعر الكاتب بأي تهيب من أن يعلن هكذا . بجرّة قلم ، احتضار تجربة لا تزال ماضية في مسيرتها الصاعدة ، ولعلها أن تكون اهم تجربة في تاريخ الادب العربي الحديث ؟

ولنأخذ الآن النموذج الثاني من « دراسات » بول شاوول :

لقد كتب في العدد ٦٣ بتاريخ ٦ أيار الماضي من مجلة « المستقبل » :

« لعل اهم ما قدمته مجلة « الآداب » اللبنانية ، منذ مدة طويلة ، وبعدما انحسر دورها انحسارا شبه تام عن أية فعالية حقيقية في الواقع الثقافي العربي الذي تجاوزها ، هو العدد الخاص « بالادب المغربي الحديث » ...

هكذا يرقى الكاتب منبر القاضي ، فيصدر حكمه من غير تقديم أية بينة على انحسار دور « الآداب » (منذ مدة طويلة .. لماذا لم يعين : ١٠ سنوات بالضبط مثلا ؟) انحسارا « شبه » تام (نحمد الله انه لم يكن انحسارا تاما !) عن أية فاعلية حقيقية في الواقع الثقافي العربي ...

اما كيف يكون قد تم هذا الانحسار ، وهل سبق للكاتب أن كتب أية كلمة يتحدث فيها عن دور « الآداب » قبل هذا الانحسار ، حتى يحق له أن يتحدث عما يزعم انه واقعها الآن ، وما هي المجلات العربية الاخرى التي تولت هذا الدور بعد « الآداب » ، واستطاعت أن تستمر وتصمد ، واستقطبت الكتّاب فنشرت أبرز انتاجهم ...

اما هذا كله وسواه ، فليس من مهمة الكاتب القاضي الحكم أن يوضحه أو يفصّله .. حسبه أن يطلق تهمه وافتراءاته ، لانه من شدة ثقته بنفسه بحيث يعتقد ان القارىء اكثر عجلة ولامبالاة من أن يحقق أو يدقق أو يشكك في مثل هذه الاحكام !

أنكون بحاجة الى دليل آخر على ما يعانيه بعض النقد عندنا من الافتقار الى حسّ المسؤولية ؟

سهيل ادريس